

المؤتمر الدولي السنوي للعلامة الشيخ أحمد القطعاني



[الدورة السادسة]

تحت عنوان:

الشيخ الكامل محمد بن عيسى المكناسي

(872هـ/ 933هـ)

المدرسة العيساوية: الأصول، الامتداد، التأثير

بين الفترة من 17 الى 20 نوفمبر 2024م

طرابلس/ ليبيا

مذكرة التعريف بالشيخ الكامل محمد بن عيسى

(872هـ / 933هـ)

أفكار وقضايا وموضوعات في سيرته ومشروعه الإصلاحي

اعداد اللجنة الدائمة للمؤتمر الدولي السنوي للشيخ العلامة أحمد القطعاني

الشيخ الكامل مُحَمَّد بن عيسى

الشيخ الكامل مُحَمَّد بن عيسى، رجل علم وفكر وإصلاح، ومن الشخصيات الرائدة التي شكلت أعمالها تحولا في تاريخ الفكر الإسلامي ونقلة لا تزال آثارها قائمة إلى اليوم.

ولد الشيخ الكامل ونشأ وتربى وبرز كعالم مربّ وتوفي في مدينة مكناس التي شكلت مهد ومنطلق مشروعه الإصلاحي الكبير، وموطنا لمدرسته الفكرية الرائدة. وفي بداياته انتقل به والده السيد عيسى بن عامر السباعي الإدريسي إلى مدينة فاس حيث جامعة القرويين لتلقي العلم، بدءا بحفظ القرآن الكريم ثم مقدمات العلوم في العقيدة والفقه واللغة وآدابها والحديث الشريف والتفسير وغيرها، ومرورا بالمراحل المتوسطة ثم المرحلة المتقدمة في مختلف العلوم قبل التخرّج فيها على يد أعلامها أمثال الشيخ أبي العباس أحمد بن جيدة والشيخ علي الزقاق والشيخ أحمد الونشريسي والشيخ مُحَمَّد بن غازي وغيرهم.

ورجع الشيخ الكامل بعد تخرّجه من القرويين إلى مكناس، وفيها اتصل بأستاذه الأكبر الشيخ أحمد بن عمر الحارثي ولزمه في سلوك التصوف علما وعملا الى أن توفي سنة 905هـ، وفي هذه السنة رحل إلى أستاذَيْه الآخرين الشيخ عبد العزيز التباع (ت 914هـ) والشيخ الصغيّر السهلي (ت 918هـ)، قبل أن يرجع إلى جامع القرويين والتصدر للتدريس فيه، ولاحقا رجع إلى مكناس وتصدر للتدريس في جامعه الكبير حتى وفاته سنة 933هـ.

وبالتوازي مع جلوسه لتدريس مختلف العلوم، في العقيدة والفقه والحديث والعربية وآدابها، في جامع مكناس الكبير، تصدر للتربية أيضا في مجالسه الخاصة بمدينة مكناس قبل أن يؤسس زاويته سنة 917هـ متنقلا بمقرها بين قبة شيخه الحارثي، ثم جامع النجارين ثم مقرها الحالي الذي يحوي رفاته الطاهرة.

ظهر الشيخ الكامل مُحَمَّد بن عيسى في ظرف دقيق وحساس في زمن كانت تعيش فيه الأمة الإسلامية ظروف التردي والتقهقر الحضاري في كل المستويات، والمغربُ العربي وهو جزء أصيل وكبير في جسم الأمة، لا تكاد تتوقف فيه الحروب والصراعات الدموية بين الحكام إلا وتتقد من جديد، فيما كان الأسبان والبرتغال قد بدأوا في الاستيلاء على السواحل والثغور والمراكز الحضارية في الشمال الأفريقي، وسط الفوضى العقدية والتراخي في التقيد بالشرع الشريف التي وصلت نتائجها الى حد انتشار ظاهرة مدعي النبوة والمشعوذين والدجالين الذين وجدوا لهم أنصارا وقبولا في بعض الأوساط.

وفي مشهد هذه الأحداث الخطرة ظهر عدد من الأساتذة والمفكرين ممن تلجأ إليهم الأمة في مثل هذه الظروف لإنقاذ الأوضاع والعودة بها إلى جادة الصواب، وكان من أبرزهم، بل على رأسهم، الأستاذ والمفكر والمعلم والمجدد صدر العلم والدعوة والإصلاح في القرن العاشر الهجري: الشيخ الكامل مُحَمَّد بن عيسى.

المدرسة العيساوية الشاذلية

الأصول الفكرية:

شكّلت مدرسة الشكر التي أرساها الإمام أبو الحسن الشاذلي في القرن السابع الهجري أساسا لتحول كبير وطور جديد في الفكر والعمل الإسلامي بعد سنوات طويلة من رسوخ مدرسة الصبر، وتوالى عدد من رجال المدرسة الشاذلية على شرح مفهوم الشكر والتربية على أسسه وإشاعته كفهم وسلوك جديد في التصوف، وانتهت هذه المدرسة إلى فرعين أساسيين هما، الفرع الزروقي الذي مثلّه الشيخ أحمد زروق، والفرع الجزولي الذي مثلّه الشيخ مُحَمَّد بن سليمان الجزولي، وعبرهما حدثت عملية التجديد الأكبر في تاريخ التصوف خاصة والفكر الإسلامي عامة. ورغم كثرة الفروع التي تعود إلى الأصل الجزولي، خاصة العائدة إلى الإمام التبّاع تلميذ الإمام الجزولي، إلا أن العديد من المصادر والشخصيات الجزولية البارزة أكدت أن الوراثة الجزولية انتهت إلى الشيخ الكامل مُحَمَّد بن عيسى الذي تتلمذ لأكثر وأبرز ثلاث شخصيات خلفت الإمام الجزولي وهي: الحارثي والتباع والسهلي. ومن طريق هذه الشخصيات الثلاث أرسى الشيخ الكامل مدرسته على أساسين رئيسين شكّلا مجمل الفكر الجزولي وهما، صحة العقيدة والارتباط الكامل بحضرة النبي ﷺ، وأبرز مظاهر الأساس الأول حزب «سبحان الدايم لا يزول» الذي صاغه الإمام الجزولي ووطنه الشيخ الكامل وردا أساسيا في طريقته، وكتاب «دلائل الخيرات» مظهرا للأساس الثاني الذي أُختص فيه الشيخ الكامل برواية أصح رواياته.

ويقوم الأساس الأول على تصحيح العقيدة والحفاظ على نقائها في الأصل الأشعري، لضمان وحدة الأمة التي توارثت هذا الاعتقاد وأجمعت على صحته، وليشكل حصنا فكريا يقيها من الاختراقات الخطيرة بضمان اتصالها بأصولها الراسخة من لدن صدر الإسلام الأول. أما الأساس الثاني فيقوم على الربط المحكم والمباشر بحضرة النبي ﷺ بكثرة الصلاة والسلام عليه، وفقا لتقسيم كتاب «دلائل الخيرات» على مدار أيام الأسبوع، من واقع صلوات اعتنى الإمام الجزولي باستخراج مروياتها مسندة إلى صحيح الآثار والأخبار. ولا يزال هذان الأساسان يشكلان لب أوراد الطريقة العيساوية إلى اليوم، فتكاد تكون الطريقة الوحيدة

التي تعتني بتوارث تلاوة حزب «سبحان الدايم لايزول»، كما أنها انفردت برواية لكتاب «دلائل الخيرات» تعد هي الأكمل والأصح ما يدل على اختصاصها وتميزها لعنايتها بهذا الأساس.

المنهج والكتب المعتمدة:

تدرج الشيخ الكامل في اعتماد مفردات منهج مدرسته على مراحل، فدرّس الكتب المعتمدة في العقيدة والفقه وأصوله والحديث وأصوله وعلوم العربية في جامع القرويين أولاً ثم في الجامع الكبير بمكناس، وبالتوازي درّس كتب التصوف في مجالسه الخاصة، قبل أن يعتمد جميعها بشكل متكامل في زاويته التي أسسها سنة 917هـ. وأقام المستوايين العلمي والصوفي على أساسي الفكر الجزولي، وهما العقيدة الصحيحة منطلقا لدراسة العلوم الأخرى في الفقه والحديث وعلوم العربية، وحب صاحب الحضرة النبوية ﷺ أساسا لدراسة كتب التصوف. وباعتبار اشتهار الكتب المعتمدة في المستوى الأول مقدمات ومطولات، إلا أنه اختار تدريس الكتب التي درسها على أساتذته الجزوليين في المستوى الثاني، والتي ذكرها العلامة الشيخ أحمد القطعاني في كتابه أعلام الطريقة العيساوية، فقال إن الشيخ الكامل درس على أستاذه أحمد الحارثي: الرسالة القشيريه، وإحياء علوم الدين للغزالي، والمباحث الأصلية لابن البنا السرقسطي، والرائية للشريشي، والحكم لابن عطاء الله السكندري، والبردة والهمزية والمحمدية للبوصيري، ودلائل الخيرات للجزولي.

تلك الكتب هي التي تمثل المنهج في المدرسة العيساوية وعليها استقر، فنجد أن فروع هذه المدرسة وعلى مدى 500 سنة وفي مختلف بلاد الإسلام قامت عليها وحافظت على استمرار تدريسها، بل ألفوا فيها ونظموا المتون وكتبوا الشروح عليها. أما في مدة التأسيس فقد سار مؤسسها وأستاذها الأول الشيخ الكامل على طريقة الإمام الشاذلي، فلم يشتغل بالتأليف والكتابة بل ببناء رجال الطبقة الأولى المؤسسة ولسان حاله ينطق بعبارة الإمام الشاذلي: (كتبي أصحابي)، بل نظم عددا من المتون في شكل أحزاب ومناظيم شعرية يعكس مضمونها طبقات من حوله في مدة التأسيس:

1-طبقة المبتدئين في التعلم والعامة، الذين تناسب حالهم أحزاب «سبحان الدايم لا يزول» و«الفتح» و«الفلاح» لمناسبة سهولة لفظها وقرب معناها وفهمها لمن هو في بدايات الطلب سواء كان من صغار الطلبة أو من عامة الناس، بالإضافة لأوراد الطريق وعلى رأسها كتاب «دلائل الخيرات» المقسم على أيام الأسبوع ويحوي خلاصة السيرة النبوية في صيغ الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم بما يحقق معرفة العقيدة الصحيحة وربط قلب المريد بحضرة النبي ﷺ وسيرته العطرة.

2–الطبقة المتوسطة من طلبة العلم، ويناسب حالهم حزب (الحصن والاستقامة) بما فيها من استشهادات بآيات كريمة وأحاديث نبوية وأذكار وردت في كتب السنة، ومنظومة «أسماء الله الحسنى»، بالإضافة لمشاركتهم أهل الطبقة التي تجاوزوها في قراءة أحزاب سبحان الدايم والفتح والفلاح ودلائل الخيرات.

3–طبقة المتقدمين من رجال المدرسة وخريجيها، ويناسب حالهم حزب «الإبريز» بلغته الصوفية العميقة فهو للصفوة ذات الذائقة الصوفية العالية مما لا يوظف للعامة من الناس ولا للمتوسطين في طلب العالم، وقريب من مضمون حزب الإبريز تقع القصيدة «التائية» بلغتها ومعارفها الصوفية الراقية.

وللشيخ الكامل قصيدة «الدرة النفيسة» التي يفصح مضمونها على أنها قصيدة للتعريف بالطريقة وقواعد السلوك فيها والدعوة إليها، وكل هذه المتون تهدف إلى البناء والتأسيس، لكن أساتذة المدرسة في مراحلها اللاحقة كتبوا وألفوا وشاركوا في الحركة العلمية والصوفية بشكل مؤثر ومباشر، خاصة وأنها لقيت قبولا وانتشارا في حياة أستاذها المؤسس، إذ نرصد صداها في أكثر من قطر عربي وإسلامي، ومنه قولة الإمام عبد السلام الأسمر المعاصر للشيخ الكامل في وصيته الكبرى: (إخواني أفضل مرابطي الغرب سيدي مُحَمَّد بن عيسى وسيدي أبي يعزى).

المشروع العيساوي الإصلاحي، أفكار وقضايا وأبعاد

أرسى الشيخ الكامل مشروع إصلاح متكامل بيّنت تفاصيلُ سيرته وأعماله العديد من أبعاده وقضاياه، يمكن إيجازها في الآتي:

الفكر الإداري: كان تحديث نظام العمل في الزوايا من بين أهم ما اعتنى به الشيخ الكامل في بناء زاويته، فأرسى فيها نظاما إداريا متكاملا منتقلا بنظام الزوايا من أنماط العمل القديم إلى تحديث الأسلوب وتنظيمه، فأسس عددا من المرافق والهيئات والمجالس داخل الزاوية، ذكر الشيخ القطعاني في كتابه أعلام الطريقة العيساوية بعضها:

1 – مجلس العشرة: وهو كما يوضح الشيخ القطعاني: (أهم مؤسسة في الزاوية وأعلاها مسؤولية تكوّن بعد ما كثر المريدون ووُرود الناس على الشيخ بالآلاف لأخذ الطريقة عنه والتبرك به، يرأسه أصغر أعضائه سنا الشيخ أبو الرواين المحجوب أما أكبرهم سنا فهو الشيخ يوسف الفجيجي)، ينعقد بواقع عشرة من كبار مريدي الطريقة كلما دعت إليه الحاجة للإشراف على الطريقة وسيرها وزواياها ومريديها، ولأهمية هذا المجلس ألقى الشيخ الكامل في أول انعقاد له كلمة قال فيها: (اللهم اجعل سريرتي أمام هؤلاء العشرة خيرا من علانيتي، واجعل علانيتي صالحة بنيتي التي عقدتها إلى يوم القيامة، اللهم إني أسألك أن تشهد على ما تنطق به

الألسنة وما تمليه القلوب وتشهد عليه الجوارح، اللهم أنت العدل وأنت الحكم بيني وبينهم وبين أتباع أتباعهم وأتباعنا جميعا إلى يوم الدين، فاشهد يا الله على بيعتنا واجعلها لنا ولهم ولا تجعلها علينا وعليهم ، إنك على كل شيء قدير وبالإجابة جدير).

2 – مجلس الوفود: ويتكون المجلس من أعيان ووجهاء المغرب، ووظيفته الإشراف على هذه الوفود الواردة على الزاوية من كل أصقاع البلاد، وتنظيم مواعيد زيارتها وإقامتها ورعايتها.

3 – مجلس عرفاء الزاوية: ووظيفته الإدارة الداخلية للزاوية، ولحجم الزاوية الكبير ودورها وتعدد أنشطتها فقد كان فيها عدد من العرفاء لكل منهم دور وتخصص معين، فهناك عريف الدرس وعريف الذكر وعريف النظافة وعريف الاستقبال وعريف الطعام وعريف الخدمة وعريف العناية بالأنعام والدواب، وغيرها.

4 – جماعة أقمار الليل: وهم جماعة لهم وظيفة تتعلق بإشاعة الأمن في ربوع المدينة وسط ظروف التردي السياسي والنهب وقطع الطريق والغزو الأوروبي، تتألف من عدد من المريدين يحملون قناديل مضيئة وهم يسيرون في شوارع مكناس وأزقتها كل ليلة من بعد صلاة العشاء إلى الصبح حتى في المطر وبرد الشتاء القارس، يترأسها أحد أبرز مريدي الطريقة وهو الشيخ أبو علي الفخار المكناسي رفقة أعضاء الجماعة وهم يتلون القرآن الكريم والأذكار والمدايح النبوية الشريفة، ويمرون بالمرضى والمقعدين وذوي الحاجات فيسامرونهم ويطربونهم بالسماع والأناشيد الدينية، فعجز المجرمون عن الانفراد بضحاياهم، وكان من بين آثارها استتباب الأمن وتوقف الجريمة، ثم عمم الشيخ الكامل التجربة على كامل زواياه في المغرب، بل وأوقف على هذه الجماعة أوقافا وأحباسا للإنفاق عليها وتنميتها.

ويعكس هذا الجانب من النظام امتلاك الشيخ الكامل وعيا واضحا بإدارة الأعمال، بل وأهمية التدريب عليه ما يعني أن مؤسسة الزاوية في فكر الشيخ الكامل كانت تؤدي مهام تدريبية على إدارة الأعمال وطرقها من جانب، ومن جانب آخر تعزيز ثقافة العمل الجماعي غير المحتكر في قرار الفرد وأنه عامل نجاح المشاريع.

كما يعكس هذا النظام الشأو الذي بلغته الزاوية في عهد مؤسسها في مستويات العمل، فمجلس العرفاء يشرف على إدارة الوظائف الداخلية بالزاوية، كالإشراف على الدرس العلمي ومجالس الذكر والحزب وعلى النظافة والاستقبال وتقديم خدمات الدعم وغيرها، يليه مجلس العشرة الذي يعد أعلى هيئات الزاوية مسؤولية، إذ هو معني بالدرجة الأولى بالراغبين في الانخراط في المدرسة

العيساوية، ودون شك فإن أعضاء هذا المجلس ممن تخرج في المدرسة وعلى دراية وإدراك لفكرها ومشروعها وبالتالي يملكون قدرة على معرفة من تتوفر فيهم شروط الانتساب والانخراط فيها، وتأهيل من ليس مؤهلا منهم.

لكن الزاوية ليست منغلقة على نفسها أو أنها لا تهتم بالشأن العام للمسلين والبلاد، فقد أشرك الشيخ الكامل رجال المجتمع من أعيانه ووجهائه في مجلس الوفود التي تفد للزاوية من المدن والقرى والأرياف، وأعضاءُ هذا المجلس مؤكد أنهم من كل أنحاء البلاد على امتداد المدن والقرى والأرياف في كل ربوع البلاد، وصلاحياتهم بالإشراف على تنظيم زيارات الوفود واستقبالهم وتسكينهم وإقامتهم يعني بكل تأكيد مشاركتهم في إدارة الزاوية التي يبدو أنها أصبحت مركز استقطاب وتأثير واسع.

الفكر السياسي:

لم تذكر كتب السير التي وثقت لحياة الشيخ الكامل أي تماس بينه وبين السلطات الحاكمة، باستثناء موقف الوالي الوطاسي على مكناس الأمير مُحَمَّد بن أحمد الذي تولى المدينة في السنوات الأخيرة من حياة الشيخ الكامل، فبسبب الإقبال الكبير من كل أنحاء البلاد بل ومن خارجها على الزاوية خشي هذا الوالي على عرشه وزادت هذه الخشية وشايات البعض بأن الشيخ الكامل صار خطرا عليه، فطلب من الشيخ الكامل مغادرة مكناس مع جميع مريديه، فرد الشيخ الكامل على هذا الطلب بقوله: (طاعة ولي الأمر واجبة وأرض الله واسعة)، ولم يرجع إلا بعد وساطة بعض علماء مكناس بينه وبين الوطاسي، غير أن الشيخ الكامل اشترط لرجوعه إلى مكناس إعفاء أصحابه من المكوس والكلف المخزنية، أي تقديم الطعام وسائر الخدمات للجند، وتعكس شروط الشيخ الكامل وقبول الوالي بها تردي أوضاع البلاد، خاصة مكناس، بغياب الدور الفاعل الذي كانت تقوم به الزاوية في استقرار المنطقة وتوفير الكثير من الخدمات والجوانب التي تعجز عنها المؤسسات الرسمية.

وتبدو تلك الأدوار التي تؤديها الزاوية عديدة، ومن بينها دور جماعة أقمار الليل التي تعد من أهم جماعات الزاوية، ويؤشر دورها كما سبق بيانه على متابعة الشيخ الكامل لظروف وأوضاع البلاد السياسية وما يستجد فيها في الداخل أو الخارج، ووعيه التام بأهمية إشاعة الأمن كعامل أساسي في الاستقرار واستمرار عجلة الحياة، ولا شك في أن هذه الجماعة مارست دور الحراسة والمرابطة وإبلاغ السلطات عن نذير أي خطر ما يوحي بعلاقة وصلات بين الزاوية والسلطة الحاكمة في البلاد، وثقة الأخيرة في أعمال الزاوية ووعيها بأهمية أدوارها وفاعليتها.

تتوفر سيرة الشيخ الكامل على العديد من الوقائع المرتبطة بسعيه لكف أذى الحكام وموظفي السلطة، لكن دوره لم يتجاوز ذلك فقط بل اتجه لخلق أدوار للزاوية تتصل بمهام ووظائف السلطات والحكام، كالمراقبة وتوفير الأمن وغيرها، دون أي تماس مع السلطة أو معارضة لقراراتها بل يشير جوابه لطلب الوالي الوطاسي بوجوب طاعة ولي الأمر وعيه بأهمية دعم السلطة السياسية من جانبه، وفرض الإصلاحات فيها من جانب آخر بما يدل عليه اشتراطه على الوالي إسقاط الضرائب والكلف المخزنية المجحفة بحق الناس، فلم يسع الشيخ الكامل رغم كثرة اتباعه وطاعة كلمته على إقامة ملك أو حكم كما سعت إلى ذلك شخصيات سبقته أو لحقته، وأخرى عاصرته وشقت عصا الطاعة، ودون شك فمثل هذا التعاطي السياسي في فكر الشيخ الكامل مؤصل وله جذوره، إذ تروي كتب السير أن شيخ شيوخه الإمام الجزولي رفض بشكل مطلق استغلال كثرة اتباعه ونفاذ كلمته في دعم تمرد قاده عمرو السياف الشياظمي أحد المقربين منه.

وهذا الأسلوب في التعاطي مع قضايا الساسة والسلطة والدولة انتهجه رجال المدرسة العيساوية من بعد، كما في سيرة الشيخ أبي الرواين المحجوب (ت 963هـ) في تعاملاته مع رجال السلطة السعدية، والشيخ مُحَمَّد بن عيسى الحفيد الذي لم يعارض قرارات السلطان مُحَمَّد الشيخ بإخراجه من مكناس وفاس فكان رده رد جده على السلطان الوطاسي بالسمع والطاعة لولي الأمر، فهاجر إلى الجزائر التي لم يعارض فيها قرارات السلطان الزياني في الجزائر الحسن بن عبد الله الثاني بل انصاع لها حتى أقنع السلطة برأيه وأكرموا وفادته وأقام في وزرة التي أسس بها زاوية كان لها دور إصلاحي كبير في قطاعات الدولة، ومنها القطاع السياسي، إذ انتسب لها من بعدُ الداي مصطفى باشا الوزناجي المعروف بالمصلح، وعلج علي باشا، والدبلوماسي مُحَمَّد البركاني، كما كان له دور كبير ومهم في مقاومة الفرنسيين في فترات لاحقة من تاريخ الجزائر، بل كانت فرنسا تخشى رجال زاوية وزرة لمكانتهم المرموقة في المجتمع الجزائري.

ومن أبرز دلائل رسوخ فكرة التعاطي مع السياسة لدى الشيخ الكامل الأعمال الدبلوماسية للشيخ أحمد المهدي الغزال، الذي كلف بسفارة إلى أسبانيا من قِبل السلطان مُحَمَّد بن عبد الله استغرقت عاما كاملا، لتحسين العلاقات بين البلدين وفتح صفحة جديدة بينهما وتمثيل المغرب في توقيع اتفاق لذلك، وكتبُه في الدبلوماسية شاهدة على ذلك، وقريب منه الدور الدبلوماسي الذي مارسه أحد أبرز رجال الطريقة العيساوية لدى السلطة العثمانية في الآستانة وهو الشيخ عبد القادر خلوصي أفندي (ت 1322هـ).

وأكثر من ذلك يعد السلطان المغربي زاهد الملوك ورائد الحريات مولاي عبد الرحمن بن هشام (ت 1276هـ) المعروف بإصلاحاته الكبيرة والواسعة من أبرز رجال الطريقة العيساوية، إذ سلكها على يد الشيخ أبي مهدي بن الحاج الهاشمي آل الشيخ الكامل.

الاقتصاد وإدارة المال:

تتفق جميع مصادر سيرة الشيخ الكامل على أنه كان من ذوي اليسار واسع الثراء، وهذا يدعمه إنفاقه الكبير على شؤون الدعوة والتعليم، وكثرة الأحباس من بساتين وماشية وحبوب التي أوقفها على الزاوية والتي تجبى إليها أموالها سنويا، والدعم الكبير الذي قدمه للفقراء والمعوزين سيما من خلال الزاوية التي كانت تطعم الناس يوميا، وترعى المسافرين وعابري السبيل وتقدم لهم القرى والمأوى والمساعدات.

وعلى الرغم من أن المصادر لم تحكِ لنا نوع الأعمال والاستثمار الذي كان يمارسه الشيخ الكامل إلا أن مضمون أغلبها يخبرنا بامتلاكه البساتين والمزارع والرعاة الذين يعملون فيها ما يشير إلى ممارسته للاستثمار في الفلاحة والزراعة، وهو نشاط ولا شك على علاقة بهدف الإعمار والاستصلاح الزراعي وإحداث نهضة فلاحية في مكناس التي لم تذكر مصادر تاريخها أنها عرفت نشاطا زراعيا قبل القرن العاشر الهجري، وهو القرن الذي عاش فيه الشيخ الكامل.

وفيما يبدو أن الشيخ الكامل كون ثروته باجتهاده وأدار أعماله الاقتصادية بنفسه، فمصادر سيرته ذكرت أن ووالده وإخوته تركوه صبيا يافعا في رعاية أخواله بني مختار بمكناس ورجعوا الى موطنهم الأصلي حيث استشهد جميعهم في منطقة الضويحل في معارك الجهاد ضد البرتغال، ما يعني أن أسرته لم تترك له إرثا شكل له كل هذا الثراء، وهذه مناسبة مهمة للفت الانظار الى بُعد لا يزال مغيبا في شخصية الشيخ الكامل لإضفاء المزيد من القراءات حوله ورسم صورة عنه أوسع وأكثر تنوعا من الصورة النمطية المتوارثة التي قدمته كرجل متفرغ للدعوة والتدريس والتربية فقط، فتطوير أعماله الاقتصادية، خاصة المشاريع الزراعية والفلاحية تستلزم عملا كثيفا ومتابعة وإدارة حتى صار ذا ثروة تدر دخلا كبيرا مكنه من الإنفاق على شأن الدعوة والتعليم في الزاوية ووقف الأملاك عليها ومن استقبال الوفود طيلة أيام السنة، وهو بُعد مهم للغاية يبين ويؤكد لنا أنه كان رجل أعمال ناجح استطاع التخطيط لمشاريعه الاقتصادية وإدارتها وتنميتها وتطويرها.

وتعكس بعض الأسماء في أوساط مريدي الشيخ الكامل تطور أعمال الزاوية وتوسع أنشطتها الاقتصادية على يد الشيخ الكامل وإدارتهم لمشاريع فلاحية، كالشيخ يوسف الدريدي الملقب بحارس البستان، والشيخ موسى بن يعقوب السهار الملقب هو الآخر بحارس البستان.

ويبدو أنه دخل عالم المال والأعمال في وقت مبكر من حياته، فدلالة الحوار الذي دار بينه وبين شيخه التباع الذي زاره عام 905هـ بعد وفاة شيخه الحارثي مباشرة، يشير الى معرفته لعالم الاقتصاد والمال، ونص مقالة الشيخ التباع للشيخ الكامل هي: (اسمع مني يا بني إن أخي الشيخ سيدي أحمد الحارثي قد صفى درهمك ولم يطبعه لك وغير المطبوع في السوق لا يجوز فها أنا قد طبعته لك بإذن الله تعالى)، وإن كان النص يحمل مدلولا صوفيا لا يخفى وهو المقصد، إلا أن تقريب المعنى لا يكون إلا بأمر معروف لدى المتلقي، فالدرهم المصفى من الشوائب والمطبوع، أي المسكوك، والسوق، كلها ذات دلالات اقتصادية وتعكس أن الشيخ الكامل لم يكن يمارس أعمالا اقتصادية بدائية تقوم على مبدأ المقايضة والتبادل، بل اقتصادي نقدي.

وتشير النصوص والوقائع المحفوظة في تاريخ الشيخ الكامل أنه رفع من مستوى العمل في زاويته لمستويات المؤسسات الكبيرة ذات الأنشطة المتعددة، فلم تقتصر على الدور العلمي والتربوي، بل مارست أدورا على علاقة بالتجارة والاقتصاد وإدارة الاعمال وكانت على صلة وثيقة بالوسط التجاري والأسواق الكبرى، حتى أنها كانت مقصدا للكبار رجال الاعمال والتجار كما تشير الى ذلك بعض الوقائع المتصلة بزيارات كانت يجريها تجار مدينة فاس للشيخ الكامل والزاوية، بل تشير وقائع أخرى بارتباط الشيخ الكامل بعلاقات وطيدة بالأوساط التجارية والأسواق الكبرى في الأقطار البعيدة، ففي بعضها أن أحد حكام السودان أرسل له رفقة أحد تجار فاس 24 رقيقا من الذكور والاناث.

ومما يتصل بالاقتصاد والأعمال في فكر الشيخ الكامل، العديد من المرويات التي تشير إلى عنايته الكبيرة بنشر ثقافة العمل والتنبيه إلى البعد العبادي في العمل لتعزيز قيم إتقانه وجودة الإنتاج، فقد أجمعت المصادر على أن الشيخ الكامل يبدأ مع غالبية اتباع زاويته بقراءة حزب سبحان الدايم بعد صلاة الصبح مباشرة ثم يتناولون ما حضر من طعام ويذهبون إلى أعمالهم حتى صلاة المغرب حيث يبدأ دروس المذاكرة اليومية الموجهة لعامة الناس.

الكتب والمكتبات:

وإن لم يعتنِ الشيخ الكامل بتأليف وتصنيف الكتب، إلا أن بين ثنايا سطور مأثوراته ما يشير إلى عنايته باقتناء الكتب وبناء مكتبة متنوعة وثرية، فتخريج نصوص المتون التي صاغها في شكل أحزاب وأدعية ومرويات حديثية يكشف عن جانب مما تحويه المكتبة التي أرساها بالزاوية:

1-من خلال نصوص «الأربعون العيساوية».: الكتب التسعة في الحديث الشريف، وسنن البيهقي ومصنف ابن أبي شيبة وحلية أبي نعيم ومعجم الطبراني وشرح السنة للبغوي وفردوس الديلمي ومسند البزار والزهد للموصلي ومسند الشهاب والجامع الصغير للسيوطي، والأربعون في تصحيح المعاملة للقشيري.

2- تخريج نصوص دعاء «النورانية».: صحيح ابن خزيمة، تهذيب الكمال للمزي، وإحياء علوم الدين للغزالي.

3- تخريج نصوص حزب «الحصن والاستقامة».: الهواتف لابن أبي الدنيا.

ومن اقتنى هذه الكتب على ندرتها وتخصصها، فلا بد وأنه ضمّن في مكتبة الزاوية طيفا واسعا من كتب الفقه والعقيدة والتفسير والأصول وعلوم العربية وآدابها وغيرها من المصادر، بل وحتى الجديد في حركة التأليف في عصره التي يكشف اقتناؤه للجامع الصغير للسيوطي المعاصر له عن متابعته لجديدها واقتنائه لكل ما يصدر فيها.

وصار الاهتمام بالكتب وبناء المكتبات تقليدا راسخا في فروع المدرسة العيساوية، فأسس حفيده مُحَمَّد بن عيسى التلمساني في وزرة زاوية عيساوية كان من بين أهم مرافقها مكتبة فريدة عامرة بالمخطوطات في كل التخصصات العلمية، بل بعضها أصول بخط مؤلفيها ما جعلها مقصد ومحج العلماء، منها مخطوطة رائعة فريدة من صحيح البخاري باللونين الأسود والأحمر لشارح صحيح البخاري سيدي الشيخ مُحَمَّد الشريف الحسني الملقب بوقفطان بن مُحَمَّد بن عيسى الحفيد مؤسس زاوية وزرة.

ومن ملامح اهتمام المدرسة العيساوية ببناء المكتبات، المكتبة التي أسسها الشيخ المُحَمَّد بن علي الأسفي الحفيان بزاويته العيساوية بمدينة الريصاني بالمغرب في القرن الثاني عشر الهجري، وجمع فيها كما كبيرا من نفائس المخطوطات ولا تزال مقصدا للعلماء وطلاب العلم، كما جمع الشيخ مُحَمَّد المهدي الفاسي (ت 1109هـ) مكتبة ضخمة، وكذلك المكتبة التي أسسها الشيخ مُحَمَّد خالد السكاف (ت 1356هـ) في زاويته العيساوية بحمص جمع فيها أزيد من 4 آلاف كتاب، منها 300 مخطوط من ضمنهم 35 مصحفا مخطوطا. وأسس الشيخ أحمد القطعاني في زواياه العيساوية العديد من المكتبات.

ويلاحظ أن الحقول المعرفية التي صاغ الشيخ الكامل وفقها متون أحزابه ومروياته وأشعاره شكلت اتجاهات التأليف الرئيسة في المدرسة العيساوية، وهي: العقيدة، والحديث الشريف، والعربية وآدابها، والتاريخ.

1-الاتجاه الأول تظهر فيه العناية الكبيرة بالعقيدة، حيث اعتنى أساتذة المدرسة العيساوية بكل فروعها في جميع الأقطار بتدريس حزب «سبحان الدايم لايزول» ووضع الشروحات عليه، أقدمها شرح الشيخ عبد الوارث اليصلوتي في المغرب، وكذلك شرح فتح القدير للشيخ صالح بن مهنا في الجزائر، والشرح الكبير للشيخ مُحَمَّد بن ابراهيم المراكشي الأندلسي ونبراس الإيناس للشيخ مُحَمَّد المسعودي في ليبيا ومفتاح المغانم لنجله الشيخ أحمد المسعودي، وغيرها، بالإضافة للاعتناء بتدريس متون العقيدة كمتن الياقوتة الفريدة للشيخ العكاري في ليبيا على يد الشيخ مختار السباعي، وتسهيل المرام شرح عقيدة العوام للشيخ أحمد القطعاني.

2-الاتجاه الثاني حيث صار الاهتمام بعلم الحديث الشريف اهتماما رئيسا لدى رجال المدرسة العيساوية، فبعد أن روى الشيخ الكامل أربعين حديثا حفظت عنه ووثقت في مصادر تاريخ الطريقة، اضطلع حفيده الشيخ مُحَمَّد الشريف الحسني بوقفطان (ت 1091هـ) الذي استمر في زاوية وزرة في تقرير الحديث الشريف كمقرر رئيسي على نهج زاوية جده في مكناس، ففرض على طلاب مدرسة وزرة سرد وشرح صحيح البخاري مع الحرص الشديد على ضرورة سماعه كاملا ، ومختصر ابن أبي جمرة، والموطأ ، وشفا القاضي عياض، وألفية العراقي في المصطلح، والشيخ مُحَمَّد المهدي الفاسي (1109 هـ) الذي يعد من كبار حفاظ الأمة، والزاوية العيساوية بسلا التي أسسها الشيخ أحمد حجي (ت 1103هـ) اعتنت بتدريس الحديث الشريف فاستضافت لديها بشكل دائم المحدث الكبير مسعود جموع الفاسي فكان يعقد بها مجالس تدريس صحيح البخاري والشفا للقاضي عياض والشمائل المحمدية للحافظ الترمذي، ومن بعده الشيخ أبومدين حجي (1155هـ) كان يدرس الحديث الشريف في ذات الزاوية، والمحدث الكبير الشيخ مُحَمَّد عبد الكريم مهيرز (ت 1233هـ) صاحب ثبت «بغية المرام» الذي روى عنه كبار محدّثي الأمة كمرتضى الزبيدي. ومن محدثي المدرسة العيساوية الشيخ مُحَمَّد البديري الدمياطي المعروف بابن الميت (ت1140هـ)، والشيخ مُحَمَّد المسعودي (ت 1288هـ)، ونجله الشيخ أحمد (ت1314هـ)، والشيخ مختار السباعي (ت 1411هـ) صاحب السماع الجزئي لتسعين كتابا في ثمانية أحاديث، والمحدث المسند الكبير العلامة الشيخ أحمد القطعاني.

3-الاتجاه الثالث، وهو علوم العربية وآدابها بما ظهر في نصوص الشيخ الكامل مُحَمَّد بن عيسى من إبداع لغوي وثراء أدبي معرفي قل نظيره في كل تاريخ التصوف الإسلامي، سيما في «التائية» وحزب «الإبريز»، فقد برز أغلب رجال المدرسة العيساوية في هذا المجال، وعرفوا بالفصاحة وجودة السبك في مقطعاتهم النثرية والشعرية، وصاغوا المناظيم في متون العلم، بل منهم من له ديوان شعر

كالشيخ أحمد المهدي الغزال (ت 1180هـ) والشيخ علي بن قاسم الشريف (ت 1265هـ) والشيخ مُحَمَّد الهاشمي آل الشيخ الكامل (ت 1427هـ) أحد أكبر أساتذة المدرسة العيساوية، والشيخ العلامة أحمد القطعاني صاحب ديوان العرجون.

4-الاتجاه الرابع، وهو التأريخ والتوثيق الذي تعد منظومة (الدرة النفيسة) مظهرا من مظاهر اهتمام الشيخ الكامل بهذا الجانب، فقد أظهر أساتذة المدرسة العيساوية اهتماما كبيرا بالتأريخ والتوثيق، وأشهرها كتاب «الدرر» للشيخ يوسف الفجيجي تلميذ الشيخ الكامل، ثم تلميذ الفجيجي الشيخ مُحَمَّد بن عسكر الشفشاوني (ت 986هـ) بكتابه الشهير «دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر»، ، ومؤلفات الأساتذة الفاسيين، كـ «تحفة الفتاوى»، و«ابتهاج القلوب» كليهما للشيخ عبد الرحمن الفاسي، و «تمسك الفقير»، و«ممتع الأسماع»، كليهما للشيخ مُحَمَّد المهدي الفاسي، والشيخ أحمد المهدي الغزال صاحب «النور الشامل في مناقب فحل الرجال الكامل»، و«الألفة والتأليف» للشيخ الهادي بن محجوب العيساوي، و«الأنيس الجليل في طريقة ومناقب سيدي مُحَمَّد بن عيسى القطب الكامل» للشيخ أحمد الخليفي، و«الشيخ الكامل سيدي مُحَمَّد بن عيسى طريقة وزاوية واستمرارية» للشيخ علال العيساوي نقيب السادة الأشراف آل الشيخ الكامل، ومؤلفات الشيخ العلامة أحمد القطعاني العديدة عن تاريخ الطريقة العيساوية.

ومن مظاهر التوثيق والتأريخ التي تدخل في مجال التاريخ، العناية بالإسناد كوثيقة مهمة من وثائق التاريخ العيساوي، وكما يظهر ذلك جليا في عناية الشيخ الكامل به في منظومة «الدرة النفيسة» فقد اعتنى الشيخ ابن عسكر الشفشاوني بنشر سند الطريقة العيساوية كاملا، وتظهر العناية بقضية الإسناد والترجمة لدى الشيخ مُحَمَّد المهدي الفاسي الذي يعد من أبرز رجال فن الإسناد الصوفي في كل التاريخ الإسلامي، والشيخ روّان بن مُحَمَّد بومدين آل الشيخ الكامل (ت 1169هـ) إذ كان وثق عنه الكثير من رجال الفكر الإسلامي أسانيد الطريقة ورووها عنه، والعديد من الشخصيات الأخرى.

التأثير الفكري والعلمي:

بذل الشيخ الكامل جهودا ضخمة في رفع مستوى مدرسته في مكناس علميا وفكريا ومشاركة في قضايا الشأن العام، من خلال التأسيس الرصين داخل المدرسة لجيل تخرج على يديه، ونرصد ملامح من هذا الدور في العديد من النصوص الموثقة عنه الدالة على مشاركة المدرسة العيساوية في الدفاع عن العقيدة، فقد أهل الشيخ الكامل رجال مدرسته للمناظرة وحوار المخالف في العقيدة في وقت كانت فيه المغرب تموج بالخلافات العقدية، بل وتفشي ظاهرة ادعاء النبوة. من تلك النصوص التي تعكس دور المدرسة العيساوية في الذود عن العقيدة والمستوى المتقدم الذي بلغه رجال المدرسة، نصوص دروسه في علم الجدل والمناظرة والحوار في

قضايا الأين والمكان والكيفية والعرضية والجوهرية، ومراتب اليقين، والتعريفات والحدود، وبيان المعاني الدقيقة للمصطلحات الصوفية كالمجاهدة والمراقبة والمشاهدة، يقول سيدي الشيخ الكامل: (إذا رأيتم من أتاكم بالجدل والجحود فادخلوا معه في هذه المعرفة، ما هو العلم ؟ وما هو العمل ؟ وأيهما يكون صفة للآخر ؟ وكيف انقسمت العلوم عن الأعمال، والأعمال عن الجوارح؟ وما أول العلوم، وما وسطها، وما آخرها ؟ وما أول الأعمال، وما وسطها، وما آخرها ؟ وما أفضل العلوم ؟ وما سيد العلوم ؟ وما سيد الأعمال؟)، وجوابه من بعد على كل هذه الأسئلة الدقيقة، كل ذلك يعكس بلوغ مدرسته وطلابها ومنهجها مستوى كبرى مدارس الإسلام، فمن يخاطبهم من طلابها يدرك أنهم قد بلغوا قطعا مراحل علمية متقدمة تأهلوا فيها للمناظرة والحوار في الساحة العلمية.

ويجب الوقوف ملياً عند مسألة مهمة تتعلق بعناية المدرسة العيساوية بقضية التعريفات والحدود في مجالات مختلف العلوم التي تظهر بشكل واضح في نصوص الشيخ الكامل السابقة، إذ اعتنت المدرسة العيساوية بهذا الفرع الفلسفي وساهمت فيه من خلال التأليف والتصنيف، ولعل أبرز مثال على ذلك كتاب (اللؤلؤ المنظوم في معرفة حدود العلوم) للشيخ منتصر بن حسام الدين السيوطي (ت 1173هـ) شيخ الطريقة العيساوية بمصر وتلميذ الشيخ مُحَمَّد بن علي الأسفي الحفيان المغربي.

وأكثر من ذلك دعمت المدرسة العيساوية، كبرى جامعات العالم الإسلامي وحواضر العلم، فتلميذه المباشر الشيخ مُحَمَّد بن عمر المختارى (ت 980هـ) بعد أن تخرج على يديه صار أستاذا بجامع القرويين، واستمرت المدرسة العيساوية تمد جامع القرويين بكبار الأساتذة، ومنهم مؤخرا الشيخ مُحَمَّد بن الحبيب (ت 1342هـ) الذي أخذ عنه الطريقة العيساوية ثلثُ علماء القرويين تقريبا.

وأثرت المدرسة العيساوية في حواضر كبرى كالحجاز إذ تصدر الشيخ يوسف الفجيجي تلميذ الشيخ الكامل للعلم بمكة المكرمة حتى لفت أنظار كبار أساتذة الحجار ومنهم شيخ الجماعة بالحرمين الشيخ مُحَمَّد بن عبد الرحمن الحطاب الطرابلسي الذي تدبج معه. وقريبا منه حلّ العالم الفاسي الكبير الشيخ مُحَمَّد العلام تلميذ الشيخ الكامل في طرابلس وأرسى فيها معالم زاوية عيساوية لا تزال قائمة برسم العلم والتربية إلى اليوم.

وتعد شخصية الشيخ مُحَمَّد المسطاري (ت 1107هـ) من أبرز الشخصيات التي أظهرت أثر المدرسة العيساوية في مختلف مدارس وجامعات العالم الإسلامي، فدعمت مدرسة الشام من خلال تلاميذه السفرجلانيين، والعجلونيين ومنهم إسماعيل العجلوني صاحب كتاب «كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس»، وعثمان بن حمودة امام الجامع الأموي وغيرهم، ودعمت مدرسة القدس من خلال تلميذه الشيخ عبد الله عبد الغفور الجوهري وابنه عبد الله، والشيخ أحمد

العلمي، ونابلس من خلال تلميذه الشيخ عبد الله الشرابي والشيخ خليل الحارثي. ودعمت مدرسة مصر من خلال تلميذه ابن الميت الدمياطي والشيخ احمد الجبالي السكندري.

ودعمت المدرسة العيساوية جامعة الزيتونة من خلال آل الشريف الشيخ علي بن قاسم ووالده، والشيخ أبوبكر ووالده مُحَمَّد هاشم القرشي والشيخ عبد الكبير الشريف كإمام أول وخطيب لجامع الزيتونة. وبل وأغلب المدارس العلمية في كل تاريخ الفكر الإسلامي، ومنها مدرسة الهند، إذ تخرج في المدرسة العيساوية عالم الهند الكبير محدثها وإمامها المتقي الهندي (ت 975هـ) صاحب كتاب «كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال» على يد الشيخ مُحَمَّد بن عيسى الوزري حفيد الشيخ الكامل أثناء اقامته بالمدينة المنورة، إذ اشتهر الوزري بلقب (شيخ المذهب) بالمدينة المنورة وأقبل عليه العلماء للأخذ عنه، ومنهم المتقي الهندي، والشيخ أحمد بن مُحَمَّد الدجاني جد القطب الصوفي صفي الدين القشاشي.

العناية بالبيئة والحياة البرية:

أشتهر الشيخ الكامل بلقب (الفهدي) لعنايته الخاصة بالحياة البرية ووعيه بأهمية التنوع فيها، فقد ورد في جوانب عديدة في سيرته ما يتعلق بالأسود والفهود التي شكلت في فترات عديدة في التاريخ المغرب مصدر خطر على الانسان وعلى الحياة بصفة عامة، خاصة وأنها بيئة عاش فيها نوع نادر من الفهود يعرف بفهد شمال غرب افريقيا، وعلى الرغم من كل ما قيل حول مخاطره إلا أن الشيخ الكامل يقدم تعاملا آخر مع النوع النادر من الحياة البرية فالكرامات التي روتها مصادر سيرته حول علاقته بالفهود والأسود تكتنز معلومات غاية في النفاسة والفرادة والوعي بطرق بديلة وأكثر حيوية في التعامل مع هذه الأنواع البرية، تصدر من مضمون عميق لمعاني الحب والجمال التي أقام عليها الشيخ الكامل مدرسته العيساوية، حتى اشتهر في الأوساط أن الفهد والأسد لا يتعدى على البساتين والمزارع الواقعة تحت رعايته، بل بلغ حنو ورفق تعامل المدرسة العيساوية مع هذه الضواري إلى حد اشتهار رجالها بمعرفة التعامل مع الضواري والإحسان إليها، ومثل هذا السلوك بالقطع كان له أثره في استمرار تنوع الحياة البرية وبالتالي توازن البيئة.

هذه العناية بالحياة البرية وبالبيئة وإن كانت على صلة بالأنشطة الفلاحية والزراعية التي كان يمارسها الشيخ الكامل، إلا أنها تبدو جانبا أصيلا في الفكر الجزولي، إذ كان شيخه الحارثي يحب الحيوانات ويحسن إليها ويستضيف الطيور بالحبوب يرشها لها، بل له اصطبل يكنسه وينظفه لها تأتيه الكلاب يوما والقطط يوما والطيور يوما يطعمها وتستأنس به، وإذا سُئل عن ذلك قال : (هي جنود تعيننا على طاعة الله والتقرب إليه بأضعف مخلوقاته عندنا وأقواها عنده)، وفي كتاب (دلائل الخيرات) أهم كتب الطريقة كثيرا

ما صاغ الشيخ الجزولي صلواته على حضرة النبي ﷺ وربط اعدادها بالأشجار وأغصانها وثمارها وأوراقها وأزهارها، بل سمى بعضها كالزيتون، وعدد حبات الرمل والوحوش وما هبت الرياح عليه، وغيرها.

ومن كلام الشيخ الكامل في الحيوان: (ارحموا ضعيفا أبكما يرحمكم الله ، الرحمة مع الأبكم الأجر فيها أجران وهي مع الناطق أجر واحد ، واتقوا ظلم الحيوان ، فمن تعدى على حيوان ألجمه الله يوم القيامة بلجام أهل النار ومسخه مسخا وأدخله دار القرار لأن الله حرم الظلم على نفسه وجعله بيننا وبين خلقه محرما)، وإذا سمع صوت حيوان سبح الله وحمده وقال: (محبة الحيوانات من محبة الله ورحمتهم يُضاعف بها الأجر ، ومواؤها تسبيحها ، اللهم فقهنا تسبيحهم وعلمنا بالجبلة التي أودعتها فيهم ما علمتهم واغفر لنا ما غفرت لهم وقربنا إليك قرابتهم منك يا أرحم الراحمين).

الفنون والموسيقى:

احتوى التصوف طيلة تاريخه العريق الفن، فهذبه وعمق معانيه ووجه رسالته وخطاباته، وشارك في انتاج نصوصه وتطوير أدواته. والمدرسة العيساوية من أبرز واشهر مدارس الفكر الإسلامي اهتماما وعناية بالفن وقضاياه ومجالاته، وعلى الرغم من أننا لا نجد في سيرة الشيخ الكامل ما يشير الى عنايته بالموسيقى إلا أن الشعر والأدب والنظم والطبوع الصوتية التي تتلى بها أحزابه في الطريقة تشير الى عنايته بالفنون وتذوقها وبكل أوجه الأذواق الرفيعة، كما أن المدرسة العيساوية ارتبطت مبكرا بفنون المالوف والموشحات والعروبيات، بل ازدهرت في زواياها في كل المغرب العربي ولولاها لاندرست هذه الفنون، ومن أقدم أساتذة الفن في المدرسة العيساوية الشيخ مُحَمَّد الشباني المختار الذي أضاف الغيطة لتصحب انشاد المدايح النبوية والقصايد، والشيخ عبد الرحمن التاغي الذي أضاف الطبل الصغير، وكلاهما من مريدي الشيخ الكامل مُحَمَّد بن عيسى المباشرين، وهما دليلان واضحان على عناية الشيخ الكامل بصقل المواهب الفنية وتوجيهها وتربية الأذواق.

طيلة القرون الخمسة تطورت علاقة المدرسة العيساوية بالفن وساهمت في دعمه بشكل كبير، ونبهت من خلال أعمال أساتذتها على سمو رسالة الفن، ففي تونس ظهرت شخصيات نشطت بشكل كبير في فن المسرح كالشيخ الفرجاني منجه (ت 1388هـ)، وشخصيات أخرى في الموسيقى كالشيخ خميّس (بالتصغير) الترنان عمود سنام الجمعية الرشيدية للموسيقى العربية في تونس، وفي ليبيا يعد الشيخ رجب البكوش رائد العمل المسرحي في بنغازي، والأستاذ حسن عريبي رائد موسيقى وفنون الموشح والمالوف، بل وفي كل الأقطار كان لرجال المدرسة العيساوية دورا فاعلا وأساسيا في الأنشطة الفنية بكل ألوانها.

ومن الأعمال المتصلة بالفن ومجالاته، أعمال العلامة القطعاني الذي اعتنى بقضية الفنون، فكتب النصوص الغنائية والمسرحية وأسس لتنفيذها (فرقة غفران للأعمال الفنية والمسرحية)، كما أطلق يوم (المسرح الوطني) في ليبيا، وأسس متحف سلين الأهلين ومتحف قصر طيبة للأعمال الفنية التشكيلية، وجمع النصوص الفنية العيساوية في كتابه «مواجيد المحبين وأشواقهم لسيد المرسلين» ووثق فيه المئات من السماعات الموسيقية العيساوية والصوفية.

اعتمدت اللجنة في إعداد هذه المذكرة على كتب الشيخ القطعاني:

- **الشيخ الكامل مُحَمَّد بن عيسى، منشورات دار الكتاب الليبي، بنغازي، 1993م.**
- **الأربعون العيساوية، منشورات دار بشرى وكلثوم، طرابلس، 2018م.**
- **أعلام الطريقة العيساوية، منشورات دار بشرى وكلثوم، طرابلس 2019م.**

رابط كتب مصادر ومراجع عن الشيخ الكامل مُحَمَّد بن عيسى والطريقة العيساوية:

